

أسلوبية القرآن الكريم

ولسانيات جاكبسون الوظيفية

د. إيناس عباس صالح البيرماني *

● يبقى القرآن بوصفه نصاً وخطاباً في الوقت ذاته قابلاً لإعادة القراءة، وإنتاج الدلالات الجديدة، والمختلفة عن الدلالات التي أنتجتها القراءات السابقة، وفق آلياتها ومعطيات عصرها المعرفية والعلمية.

من هذا المنطلق تحاول هذه الدراسة إعادة قراءة القرآن، على وفق معالجة لسانية أسلوبية، إطارها مخطط جاكبسون الأسلوبي الذي وضعه لتحديد الوظائف اللغوية التي يمكن أن يحتويها أي نص، سواء أكان أدبياً أم غير أدبي.

وتحاول هذه المعالجة اللسانية أن تجيب عن أسئلة يثيرها تطبيق المخطط

على سور القرآن، من مثل:

١- ما الوظائف اللغوية التي تحتويها سور القرآن؟ وهل تتضمن السورة وظيفة متميزة عن الوظائف الأخرى؟

٢- هل يمكننا بوساطة الإجابة عن التساؤلات الماضية أن نطرح فكرة جوهرية حول تساوي سور القرآن وآياته في مستواها الفني والتأثيري؟. وهو موضوع أثاره القدماء على استحياء لما فيه من جانب عقائدي إشكالي حول كلام الله وجواز تفاوت درجاته الجمالية البيانية والتأثيرية.

الكلمات المفتاحية: أسلوبية ، لسانيات، الوظائف اللغوية، النص، نظرية جاكبسون

* سوريا / كلية الآداب والعلوم الإنسانية / قسم اللغة العربية

المطلب الأول

القسم النظري (النظرية والنص)

أولاً: النظرية (مخطط الوظائف اللغوية)

١- المفهوم:

منذ أن شكّل جاكبسون مع نقاد آخرين حركة الشكلانيين الروس، ثم انتقله إلى حلقة براغ اللغوية حتى وصوله إلى أمريكا وإسهامه في وضع المنهج البنيوي، في كل هذه المراحل النقدية كان اهتمام جاكبسون منصباً وبشكل أساس على وضع نظرية أدبية خالصة، تستطيع التمييز بين النص الأدبي والنص غير الأدبي على وفق معايير لسانية خالصة.

من هذا الاهتمام المتواصل لجاكبسون حول اللغة الأدبية أو الشعرية وخصائصها الفارقة عن باقي أشكال التعبير الإنساني، وضع جاكبسون مخطط الوظائف اللغوية الألسني مستهدفاً منه بشكل مركزي وضع تصور لساني للوظائف اللغوية التي تحويها النصوص اللغوية، ومن ثم التمييز بين نص وآخر على أساس الوظيفة المهيمنة على كل نص لغوي، إذ لا يمكننا، وبحسب قول جاكبسون، من تحديد التنوع بين النصوص اللغوية بمجرد استكشاف الوظائف اللسانية المتوافرة في كل نص، وإنما في تحديد الوظيفة المهيمنة التي تحدد بنية النص اللغوي وطريقة تشكله لسانياً^(١).

لقد شكّل التمييز بين اللغة العادية بكل

أشكالها، اليومية، الإخبارية، والوصفية، وبين لغة الأدب والشعر « منطلق جاكبسون في دراسته الوظيفية خلال مرحلة موسكو وفي بداية مرحلة براغ، فهو يميز بين الوظيفة التواصلية للغات العلمية والانفعالية، التي تتميز بتوجهها نحو المدلول، وبين الوظيفة الشعرية التي تُعبّر عنه بالتوجه نحو الدليل بوصفه دليلاً»^(٢).

لقد أفاد ياكبسون من أنموذج كارل بوهلر (كارل بوهلر: عالم نفسي ولغوي ألماني تكلم عن اللغة في الثقافة الغربية سنة ١٩١٨م بثلاث وظائف هي: الوظيفة التعبيرية الانفعالية المرتبطة بالمرسل - الوظيفة التأثيرية الانتباهية، المرتبطة بالمخاطب - الوظيفة المرتبطة بالمرجع). الثلاثي الذي يعتمد إلى ثلاثة عناصر للتواصل اللغوي هي: المرسل، والمرسل إليه، وموضوع الخطاب، ومن ثم ينتج التركيز على أي عنصر منها وظيفة مختلفة عن الأخرى، إذ ينتج على المرسل الوظيفة الانفعالية، وينتج على المرسل إليه الوظيفة الإفهامية، بينما تنتج الوظيفة المرجعية عند التركيز على المرجع أو موضوع الخطاب^(٣). أفاد جاكبسون من هذا الأنموذج إلا أنه وسّع عناصر الاتصال اللغوي لتصبح ستة عناصر، ومن ثم تنتج ست وظائف لغوية مختلفة.

ويمكننا توضيح عناصر الاتصال الستة من خلال الشكل الآتي^(٤).



سياق الرسالة

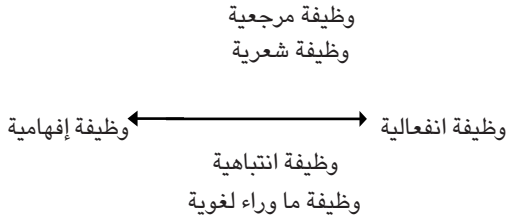
المرسل _____ المرسل إليه
صلة
سُنن

ويوضح جاكبسون طريقة عمل هذه العناصر وتشكيلها للنصوص اللسانية على وفق التصور الآتي، إذ يقول: « إنَّ المرسل يوجه رسالة إلى المرسل إليه، ولكي تكون الرسالة فاعلة، فأنتها تقتضي بادئ ذي بدء سياقاً تُحيل عليه، وهو ما يدعى أيضاً المرجع، سياقاً قابلاً لأن يدركه المرسل إليه، وتقتضي الرسالة بعد ذلك سُنناً مشتركة، كلياً أو جزئياً، بين المرسل والمرسل إليه، وتقتضي الرسالة أخيراً اتصالاً، أي: قناة فيزيقية وربطاً نفسياً بين المرسل والمرسل إليه، اتصالاً يسمح لهما بإقامة التواصل والحفاظ عليه»^(٥)، بمعنى أن كل عملية لسانية لا بُدَّ أن تقوم على توافر ثلاثة عناصر هي: الباث والرسالة والمتلقي، « وعملية البث هي عملية تركيب لرموز، أما عملية التلقي فهي تفكيك لهذه الرموز، على شرط أن تكون السنة (أي: طريقة البناء اللغوي) مشتركة بين الباث والمتقبل، عبر قناة معينة»^(٦).

إنَّ التركيز على أي عنصر من هذه العناصر الستة يُولد وظيفة لسانية مختلفة عن الأخرى ومن ثم ترتبط ست وظائف لسانية بعناصر الاتصال الستة، « وبديهي تتعلق البنية اللفظية

للرسالة بالوظيفة المهيمنة، بيد أنَّ المساهمة الثانوية للوظائف الأخرى لا بُدَّ من أن يُنظر إليها كونها مهمة أيضاً»^(٧)، وليس المهم التواجد المتميز للوظائف كلها في النص اللساني « إنما في اختلاف نظامها التراتبي، إذ لا توجد بتاتاً رسالة لا تؤدي إلا وظيفة واحدة، والوظيفة المهيمنة هي التي تُحدد كل مرة بنية الرسالة »^(٨)، وهذا الأمر بالتحديد، وأعني العلاقة بين الوظيفة المهيمنة في النص مع باقي الوظائف المتوافرة فيه، هو الجانب المتميز في النص القرآني الكريم كما سنشرح فيما بعد.

إنَّ الوظائف اللغوية التي تتحقق من مخطط جاكبسون السابق بالتركيز على عنصر من العناصر الستة المشكلة لعناصر الاتصال يمكن توضيحها بالشكل الآتي:



أما مفهوم هذه الوظائف وتوصيفها فيمكن توضيحه بما يأتي:

١- الوظيفة الانفعالية: وتسمى أيضاً: (التعبيرية والتأثيرية)، وهي الوظيفة المتعلقة بالعنصر الأول في النموذج التواصلية الألسني لياكبسون أي: (المرسل)، وتهدف إلى التعبير المباشر عن موقفه إزاء كلامه وما يلونه به من



أساليب، أو ما يكون عليه ساعة خطابه في لهجته وقسمات وجهه، بمعنى أنّ الوظيفة الانفعالية تُحدد العلاقة بين المرسل والنص وموقفه منه.

أي أنّ النص أو الرسالة اللغوية في حالة صدورها فإنها بالضرورة تدلُّ على طابع مرسلها وتكشف عن حالته، فضلاً عما تحمله من أفكار تتعلق بالشيء الذي تتحدث عنه وهو ما يسميه ياكبسون (المرجع)، إذ يُعبّر المرسل عن مشاعره وأفكاره تجاهه وأكثر ما تتجلى هذه الوظيفة في أسلوب التعجب، وطريقة تلوين الكلام الصوتية ونبرات الحديث المتغيرة بحسب موقف المتكلم وطرائق تعبيره الانفعالية، وهنا نتذكر الفرق الذي يذكره البلاغيون في استعمال الأداة (هلا) بين الطلب مع التنديم، وبين الطلب مع الحض والاجتهاد، والفرق بين الاستعمالين يرافقه تغيير في أسلوب إلقاء الكلام وطريقة عرضه.

٢- الوظيفة المرجعية أو السياقية: وهي الوظيفة التي تقوم بها أغلب الرسائل اللغوية المتضمنة للأخبار، بل هي في الحقيقة الوظيفة الأساس للغة، بوصف اللغة رموزاً وأشكالاً ترجعنا إلى موجودات، فيقع الربط بين هذه الرموز وبين الأشياء التي تتحدث عنها.

إنّ الوظيفة المرجعية تُحدد العلاقات بين الرسالة أو النص وبين الشيء أو الغرض الذي ترجع إليه، فهي أكثر الوظائف اللغوية

أهمية في عملية التواصل اللساني، وهنا نتذكر تعريف ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ) للغة بوصفها: «أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم»^(١) لتؤكد من أنّ الوظيفة الأساس للغة هي الوظيفة المرجعية، أو كما أسماها (ابن أغراض) وتعني بالتأكيد الهدف من التخاطب بشكل عام.

٣- الوظيفة الإفهامية: ويطلق عليها أيضاً (الندائية)، وهي وظيفة خاصة بالمرسل إليه، تسعى لإفهامه مضمون الرسالة أو التأثير عليه، وهذه الوظيفة تحدد العلاقة بين المرسل والمرسل إليه بوساطة الرسالة ومضمونها التأثيري على القارئ أي: المرسل إليه، وأكثر ما تتضح هذه الوظيفة في أسلوب النداء والأمر الباقي أساليب الإنشاء البلاغية، لتوجههما المباشر نحو قارئ الرسالة.

٤- الوظيفة اللسانية الواصفة: ويطلق عليها أيضاً أو (ميتا لسانية) أو (ما وراء لغوية)، إذ جرى التمييز في المنطق الحديث للغة بين الواصفة التي تُدرس اللغة ذاتها، وبين اللغة التي تتحدث عن الأشياء الأخرى، وتسمى اللغة، الموضوع - وغاية هذه الوظيفة اللسانية التأكيد من أنّ السُنن اللغوية التي يتم على أساسها التواصل مشتركة بين المرسل والمرسل إليه، حتى يتم فهم الرموز والدلالات التي تتضمنها الرسالة المشتركة بينهما، بمعنى أنّ اللغة ذاتها تكون مادة الدراسة، إذ يتم وصفها وتعريف مفرداتها وطريقاتها في البناء اللساني للجمل، والفقرة، والنص كله.



وأبرز ما تتجلى هذه الوظيفة في الدراسات اللغوية والصرفية والنحوية والدلالية، التي تحاول في كل منها تحليل جانب محدد من التركيب اللغوي المتكامل لأي لغة ما.

٥- الوظيفة الانتباهية: تكمن أهمية هذه الوظيفة في أي رسالة لسانية في التأكد من استمرار التواصل بين المرسل والمرسل إليه، عبر ألفاظ من مثل: (ألو) و(أتسمعي) و(أنت معي؟) وغيرها من الألفاظ والعبارات التي تستعمل للتأكد من استمرار التواصل اللساني أو غير اللساني، هذه الوظيفة اللفظية الأولى التي يكتسبها الأطفال، إذ يعتمد الأطفال إلى تأكيد التواصل مع غيرهم قبل قدرتهم على إصدار الرسائل الحاملة للأخبار، وقد أشارت كتب البلاغة القديمة إلى وظيفة كلامية تشبه هذه الوظيفة تحت باب (مساوي الكلام) وهي عندهم كلمات أو عبارات لا تضيف شيئاً للمعنى وإنما هدفها التأكيد على التواصل اللساني بين طرفي الكلام من مثل أفهمت؟ أهذا واضح؟

٦- الوظيفة الشعرية: ويطلق عليها (الوظيفة الأدبية)، وهي الوظيفة التي تكون فيها الرسالة - أي لغة النص غاية في حد ذاتها، لا تُعبّر إلا عن نفسها، فتصبح هي المعنية بالتحليل بوصفها نظاماً إشارياً جمالياً والتجلي الأعمق لهذه الوظيفة يتركز في الأدب بكل أشكاله من شعر، ورواية، ومسرح، إلا أن التواجد الأكبر لها يكون في الشعر، إذ هي العامل المهيمن فيه والمحدد لبنيته^(١٠).

إن هيمنة الوظيفة الشعرية في أي نص لساني تجعل منه أيضاً نصاً أدبياً جمالياً، يتميز بلغته الأدبية المكثفة عالية الخصوصية، بشكلها ومضمونها الجماليين، لكن السؤال المهم الذي يطرحه جاكبسون هو: حسب أي معيار لساني تجريبي نتعرف من خلاله على الوظيفة الشعرية في أي نص أدبي؟

يجيبنا جاكبسون ذاته إن التعرف على الوظيفة الشعرية في أي نص الأدبي يتم من خلال محوري (الاختيار والتأليف) أي: إسقاط لمحور الاختيار على محور التأليف، يقول جاكبسون: « وتسقط الوظيفة الشعرية مبدأ التماثل لمحور الاختيار على محور التأليف»^(١١).

إذ إن توافر اللغة لمستخدميها دوالاً كثيرة متشابهة في دلالتها العامة مع احتفاظها بخصوصياتها الدلالية، يختار المرسل من بينها ما يلاءم غرضه الفكري أو الجمالي، في تركيب إسنادي عام، ثم يعتمد إلى محور التأليف ليشكل اختياراته اللسانية وفق غرضه الجمالي أو المضموني أو كليهما.

ومن خلال إسقاط مبدأ الاختيار على مبدأ التأليف تتنوع النصوص الأدبية وتتغير وتتفاوت في جماليتها وقوة تأثيرها الجمالي والمضموني في المتلقي، ولكن أيعني أن الوظيفة الأدبية لا تتوافر إلا في النصوص الأدبية؟ إذ يرى البعض « إن هذه الوظيفة ليست موجودة في الكلام العادي الذي تؤدي فيه اللغة وظيفتها الاجتماعية الأساسية قائلين



ومتفوقاً على غيره من النصوص اللغوية، بمعنى أن يحقق النص انسجاماً عالياً في تبادل دور الوظائف اللسانية الممثلة لنسيجه اللغوي، ذلك أن أي نص - وبحسب رؤية جاكبسون - لا بُدَّ أن يشتمل على عدة وظائف لسانية، ولا يمكن أن يتوافر على وظيفة واحدة مهما كان هدفه التشكيلي والمضموني، والذي يُحدد شكله وبنيته اللسانية هو هيمنة وظيفة ما على حساب باقي الوظائف، كما في هيمنة الوظيفة الشعرية في الشعر وتميزه بها من باقي أشكال التعبير اللساني، إلا أنني افترض أن حدوث التوازن بين مختلف الوظائف اللسانية التي وضعها جاكبسون يُولد نصاً متميزاً عن غيره من النصوص المتماثلة معه أو المختلفة عنه، وإنَّ هذا التوازن وتبادل الأدوار بين هذه الوظائف خلال سير بناء النص اللغوي، يعطيه طبيعة مختلفة عن باقي النصوص بل ويجعله في مرتبة أعلى منها جميعاً.

إنَّ النص القرآني يكاد يكون النص اللساني الوحيد الذي استطاع الجميع بين الوظائف اللسانية المتنوعة بشكل متوازن، وموزع بشكل منظم داخل السورة الواحدة، وداخل القرآن كله عبر سورة كلها، بمعنى أنَّ سور القرآن في أغلبها ولاسيما الطوال منها، تحتوي في نسيجها اللغوي وظائف لسانية متنوعة، تتناوب في حضورها وغيابها، أو في هيمنة أحدها على الباقي عبر أجزاء السورة التي تناقل من موضوع إلى آخر، ومن قضية

إنَّ الوظيفة الأدبية تكون ذلك في الدرجة الصفر»^(١٢).

إلا أنَّ جاكبسون ذهب إلى أن كل رسالة مهما كانت غايتها تتضمن وظيفة أدبية، إلا أن هذه الوظيفة تختلف من نص إلى آخر « وهكذا فإنَّ الوظيفة الشعرية هي إحدى وظائف اللغة، وهي موجودة في كل أنواع الكلام، فضلاً عن الوظائف الأخرى، إلا أنَّ هيمنة إحدى هذه الوظائف (مرجعية - شعرية...) لا تنفي وجود العناصر الأخرى وإنما تحدد نوع المرسل»^(١٣).

إلا أنَّ هناك سؤالاً أهم ويتعلق بجوهر بحثنا حول القرآن الكريم وهو: (هل توافر الوظيفة الأدبية الجمالية في نص ما وبكثافة عالية تغلب على الوظائف الأخرى، يجعله في مرتبة أعلى من النصوص الأخرى التي تتوافر فيها هذه الوظيفة بدرجة أقل؟). والحقيقة أن الجواب عن هذا السؤال يحيلنا إلى الهدف الأساسي من أي نص، فإذا كان الهدف جمالي فإنَّ توافر الوظيفة الأدبية يصبح مقياساً لعلو جودة النص، أما إذا كان هدف النص شيء آخر (اختياري، عقائدي، تشريعي...) فإنَّ توافر الوظيفة الأدبية لا يعد ميزة للنص، بل التركيز يكون حينها على وظيفة لسانية أخرى.

وهنا أصل إلى فرضية البحث التي أسعى لإثباتها، إذ يفترض البحث أن التوازن في توافر الوظائف اللغوية الذي يمكن أن يحدث في أي نص لساني هو ما يجعل هذا النص متميزاً

إلى أخرى مما يستلزم تغييراً في الوظيفة المهيمنة، التي تمنح النص شكله اللساني المناسب لموضوعه أو قضيته للمعالجة، سواء أكانت عقائدية أم تشريعية أم أخلاقية توجيهية، أم غير ذلك من موضوعات وقضايا القرآن الكثيرة والكبيرة.

غير أن التوازن والتوزيع المنظمين للوظائف اللسانية في القرآن كله لا يلغي هيمنة وظيفة ما على إحدى السور دون الأخرى، أو على أحد أجزاء القرآن دون غيره وبحسب موضوعاته وقضاياها المتناولة.

وهنا أطرح التساؤل الذي سأحاول الإجابة عنه فيما بعد وهو: هل إن غلبة الوظيفة الشعرية في بعض السور أو في أجزاء دون غيرها من القرآن يمنحها تميزاً عن غيرها من الآيات والسور؟ هذا ما سأحاول الإجابة عنه تحليلياً، لكن سأناقش القضية نظرياً من خلال مسألتين شغلنا الفكر الإعجازي واللغوي عموماً وأعني بهما لغة القرآن، وإعجاز سوره من حيث تساويها أو تفاوت في درجة الإعجاز، وهذا سنتناوله في النقطة القادمة.

ب- نظرية الوظائف اللغوية في التراث النقدي العربي القديم:

لا نريد هنا أن نجري عملية إسقاط لمفهوم نظرية الوظائف اللغوية كما وضعها ياكبسون على نقدنا العربي القديم، وإنما نحاول أن نعثر على تشابهات منهجية أو تحليلية للفكرة الأساس التي تقوم عليها نظرية الوظائف

اللسانية.

أول أمر يمكن الإشارة إليه في الإطار التأصيلي أن نقادنا وعلماء اللغة بشكل عام، في تراثنا اللغوي القديم، قد وعوا وجود مستويين لسانيين للغة، وبحسب الوظيفة التي يؤديها المستوى اللغوي المحدد، يقول الدكتور عبد الحكيم راضي في هذا الإطار: « وحسبنا أن نسجل تمييز النقاد والبلّغيين العرب، وعلماء الأصول أيضاً، بين وظيفة غير فنية يضطلع بها المستوى العادي من اللغة ووظيفة فنية يضطلع بها المستوى البليغ^(١٤).

أول مستوى لساني حدده العلماء هو المستوى العادي غير الفني، الذي تكمن وظيفته اللغوية في التواصل الاجتماعي، أو الشرح العلمي والتعليمي.

ويشرح ابن سينا (٤٢٧هـ) هذه الوظيفة بقوله: « لما كانت الطبيعة الإنسانية محتاجة إلى المحاورة لاضطرارها إلى المشاركة والمجاورة... انبعثت إلى اختراع شيء يتوصل إلى ذلك، ولم يكن أخف من أن يكون فعلاً، ولم يكن أخف من أن يكون بالتصويت، وخصوصاً الصوت لا يثبت ولا يستقر ولا يزدحم، فتكون فيه مع خفته فائدة انمحاء... فمالت الطبيعة إلى استعمال الصوت، ووفقت من عند الخالق بآلات تقطيع الحروف وتركيبها معاً، ليدل بها على ما في النص من أثر^(١٥)، إذ يتضح من كلام ابن سينا السابق أن اللغة قد وضعت لإيجاد طريقة للتفاهم والتواصل الاجتماعي بين البشر، والتعبير عما في نفس الإنسان من

أفكار.

ما يحتاج إليه أرباب الفصاحة والبلاغة فيما يصوغونه من نثر ونظم، ورأى أن من مهمات ذلك التجنيس، لا تقوم بها الأسماء المشتركة التي هي كل اسم دلّ على مسميين فصاعداً، فوضعهما من أجل ذلك^(١٨).

إلا أن النقلة النوعية في التراث النقدي العربي فيما يتعلق بتحليل الوظائف اللغوية للنصوص اللسانية، كانت مع حازم القرطاجني (٦٨٤هـ) الذي فصل كثيراً في هذه القضية وعالجها بشكل يقترب كثيراً مما أسس له جاكسون في النقد الحديث^(١٩).

ويمكن تتبع الإجراءات النقدية التحليلية التي سار عليها حازم القرطاجني في دراسته للوظائف اللغوية على وفق الخطوات الآتية:
أ- فرّق حازم القرطاجني بين الوظيفة الشعرية للغة، والوظيفة غير الشعرية التي تختلف عن الوظيفة الشعرية مهما كان غرضها الوظيفي، المهم أن الوظيفة الشعرية يحتاج في تشكيلها إلى غير ما يحتاج إليه في الوظائف اللغوية الأخرى. إذ يقول حازم في توضيح هذا الفرق بين ما هو شعري وغيره: « وليس ما سوى الأقاويل التي ليست بشعرية ولا خطابية ينحى بها نحو الشعرية لا يحتاج فيها إلى ما يحتاج إليه في الأقاويل الشعرية، إذ المقصود بما سواها من الأقاويل إثبات شيء أو إبطاله أو التعريف بماهيته وحقيقته»^(٢٠)، لكن ما الشيء الذي تفترق به الأقاويل الشعرية، كما يسميها حازم، عن غيرها من الأقاويل غير الشعرية؟ هذا ما

وقد تكون وظيفة اللغة غير الفنية التعليم وتحصيل المعارف الإنسانية، يقول الأمدي (٦٣١هـ): « لما كان كل واحد لا يستقل بتحصيل معارفه بنفسه وحده دون معين مساعد له من نوعه... استخدم الإنسان ما يتركب من المقاطع الصوتية التي خص بها نوع الإنسان دون سائر أنواع الحيوان عناية من الله تعالى به...»^(١٦)، فهذه وظيفة اللغة غير الفنية أو الأساسية التي تتمثل في التواصل الاجتماعي وتلقي المعارف الإنسانية.

أما الوظيفة الأخرى للغة التي أشار إليها الأقدمون، فهي الوظيفة الفنية أو الأدبية، ولهذا - وبحسب تصور القدماء من لغويين ونقاد - دعت الحاجة إلى وضع الألفاظ المشتركة الدلالة - والألفاظ المتعددة للمعنى الواحد، والألفاظ المختلفة للمعنى الواحد، لأن كل هذه الدلالات مما يحتاج إليه في الكتابة البلاغية، شعرية كانت أم نثرية، لصياغة العبارة صياغة فنية مؤثرة في المتلقي^(١٧)، ويسمي ابن الأثير (٦٣٧هـ) هذه الوظيفة بـ (التحسين)، بينما يطلق على الوظيفة بـ (البيان)، غذ يقول في هذا التفريق بين الوظيفتين: « أما في البيان فقد وفي به الأسماء المتباينة التي هي كل اسم واحد دلّ على مسمى واحد، فإذا أطلق اللفظ في هذه الأسماء كان بيناً لا يحتاج إلى قرينة، ولو لم نضع الواضع من الأسماء شيئاً غيرها لكان كافياً في البيان، وأما التحسين فإن الواضع لهذه اللغة العربية، نظر إلى

حدده حازم في النقطة القادمة.

ب- حدد حازم جوهر العملية الشعرية التي تنتج الوظيفة الأدبية أو الشعرية في أي نص لساني (يجب أن نعرف أن حازم يفرق بين الشعر وبين الأقاويل الشعرية، فالأقاويل الشعرية تماثل ما ندعوه اليوم الأدبية التي يمكن أن تتوافر في أي نص لساني شعرياً كان أم غير شعري، شرط هيمنة الوظيفة الشعرية عليه، بالتركيز على اللغة ذاتها). على وفق إجراءين لسانيين هما: الاختيار والتأليف، كما سيسميها ياكبسون لاحقاً (الاختيار والتوزيع) أو المحور الاستبدالي والمحور النظمي^(٢١).

يقول حازم في توضيح هذين الإجراءين اللسانيين للوظيفة الشعرية: « وأيضاً فإنّ الأقاويل الشعرية يحسن موقعها من النفوس من حيث تختار مواد اللفظ وتنتقي أفضلها وتركب التركيب المتلائم المتشاكل ... »^(٢٢)، ويؤكد حازم في موضع آخر على هذين المبدئين، أعني الاختيار والتأليف، فيقول: « وتفضيل هذه الجملة أن القول في شيء يصير مقبولاً عند السامع في الإبداع في محاكاته وتخيله على حالة توجب ميلاً إليه أو نفوراً عنه، بإبداع الصنعة في اللفظ، وجادة هيأته ومناسبتها لما وضع بإزائه »^(٢٣).

ج- في مرحلة أخرى أكد حازم أن اختلاف الأقاويل يكون بحسب المرجعية التي تحكمها وتشكل لغتها، فقال: « والأقاويل الشعرية أيضاً تختلف مذاهبها وأنحاء الاعتماد فيها بحسب الجهة أو الجهات التي يعتني الشاعر

فيها... وتلك الجهات هي ما يرجع إلى القول نفسه أو ما يرجع إلى القائل، أو ما يرجع إلى المقول فيه، أو ما يرجع إلى المقول له »^(٢٤). وواضح من كلام حازم أنه يفرق بين أربعة أشكال من الوظائف اللغوية بحسب العنصر الذي تركز عليه الرسالة اللغوية، لتصبح لديه أربع وظائف لسانية هي:

١- الوظيفة الأدبية أو الشعرية، حين يكون التركيز على الرسالة، أو كما قال هو.

٢- الوظيفة الانفعالية، حين يكون التركيز على المرسل أو حسب تعبيره (ما يرجع إلى القائل).

٣- الوظيفة المرجعية، إذا كان التركيز على الموضوع أو المرجع المتكلم عنه، وحسب وصفه (ما يرجع إلى المقول فيه).

٤- الوظيفة الإفهامية، إذا كان المهيم على المرسل إليه، وكما قال هو: (ما يرجع إلى المقول له).

وبهذا يكون جاكبسون قد عالج قضية الوظائف اللغوية، وشعرية النص اللساني من جوانب عدة، تتعاقد لتكون رؤية متكاملة أو شبه متكاملة للموضوع سبق بها حازم القرطاجني النقد الحديث في التنظير لها ورسم أبعادها النقدية^(٢٥).

ثانياً: النص (القرآن لغته وإعجازه)

سأتناول في هذه الفقرة قضيتين تتعلقان بالقرآن الكريم، وتتصل بموضوع البحث المتمركز على تحليل لغة القرآن، باستعمال نظرية الوظائف اللغوية لجاكبسون.



التمائل بين الشعر والقرآن على الرغم من عدم احتواء القرآن على قافية موحدة، ووزن عروضي يشابه الشعر الجاهلي، الذي يقوم أساساً على هاتين الدعامتَيْن الأسلوبيتين؟ وهناك قسم آخر من الدراسات اللغوية والنقدية لاسيما الاستشراقية، ترى أن لغة القرآن تمثل اللغة الأدبية الكلاسيكية التي يتشكل منها الشعر الجاهلي، والتي يتحدث فيها في المناسبات الخاصة أدبية كانت أم غير الأدبية، المهم أنها تستعمل في إطار خاص بعيد عن اللغة المحكية التي يستعملها الناس في حياتهم العامة في أسواقهم التجارية^(٢٨). إن هذا التماثل الذي يؤكدُه هؤلاء الباحثون بين لغة القرآن، واللغة الأدبية الرفيعة عند العرب الجاهليين، لغة الشعر والخطابة، جعل العرب يماثلون بين النص القرآني والنص الشعري باتهامهم للرسول (صلى الله عليه وسلم) إنه شاعر كما ذكر تعالى في كتابه الكريم، إذ يقول: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾^(٢٩)، على الرغم من عدم وجود التشابهات بين القرآن وبين الشعر، لا في الموضوعات ولا في الوزن والقافية، فلم يبق من تشابه بين القرآن والشعر إلا في طبيعة اللغة، إذ ما يجمع بينهما حتى ظن العرب في الجاهلية أن الرسول شاعر وإن آياته شعر» هو استعمال القرآن للغة العربية غير المحكية التي يستعملها الشاعر، وهي اللغة التي ولدها ووجهها وبثها تراث متوارث منذ القدم لشعر عربي مشترك بين المجموعة

القضوية الأولى تتمحور حل لغة القرآن وطبيعتها المعرفية التاريخية، ذلك أن من المسلّم به عند كثير من الباحثين أن لغة القرآن هي لغة قريش الموحدة، أو لغة متشكلة من لهجات عربية متنوعة، وإن القرآن نزل بلغة عربية فصيحة تمثل لغة التخاطب التي تجري على أساليب العرب في بناء الكلام وتشكيله^(٣٠)، لكن هذا الأمر المسلّم به يثير إشكالية حوله تتمثل في السؤال الآتي: «كيف يمكن التوفيق بين القول ببلاغة القرآن وبين القول بجريانه على أساليب العربية؟»^(٣١). وبعبارة أخرى كيف يمكن الجمع بين مسألة جريان أسلوب القرآن على سُنن العرب في كلامها، على أي نمط القاعدي للغة، وصف القرآن في الوقت ذاته أنه في أعلى مراتب البلاغة، مما يعني أن لغته محرفة عن النمط المثالي للغة؟

فإن القول إن القرآن نزل بلغة قريش أو بلغة متشكلة من عدة لهجات قبلية، تمثل في الأمرين المستوى المثالي للغة، أي: لغة التخاطب اليومي، لا يقدم إجابة عن الإشكال الماضي الذي طرحته في السؤال أعلاه، ذلك أن تساؤلاً آخر يمكن أن يُطرح هنا يتعلق بالسبب أو العلة التي من أجلها اتهم الكفار والمشركون العرب النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) إنه شاعر وإن الكلام الذي يأتي به، وهو القرآن طبعاً، كلام شاعر؟ بمعنى آخر ما التشابهات التي ظهرت لهم بين شعرهم الجاهلي، وبين لغة القرآن مما سوّغ لهم إدعاء

العربية بأكملها»^(٢٠).

التي سنوضحها في القسم التطبيقي، وبين المستوى الشعري للغة التي تتسم بمستواها اللساني والتشكلي المختلف عن اللغة السابقة في الأسلوب والمفردات والبناء.

وهنا ننتقل إلى القضية الثانية في هذه الفقرة، وأعني بها إعجاز القرآن الكريم؛ لأنَّ لها علاقة بما ذكرها في النقطة السابقة حول لغة القرآن الكريم أننا لن نتناول هنا قضية الإعجاز من نواحيها المختلفة، وإنما سنركز على مسألة واحد يلخصها السؤال المركب الآتي:

(إذا اتفقنا أنَّ القرآن بمجمله وكليته معجز في لغته وأسلوبه، فهل يقتضي ذلك تساوي آياته وسوره في مستواها الفني؟ وهل القول بأنَّ القرآن معجز بلغته وأسلوبه (النظام حسب تعبير عبد القاهر الجرجاني) يعني بالضرورة أن شكل الإعجاز اللغوي والأسلوبي واحد في مفهومه وحدوده في كل الآيات (والسور؟).

إذا ألقينا نظرة سريعة في كل كتب الإعجاز والدراسات القرآنية وكتب علوم القرآن، نجد أن أكثر العلماء والباحثين يقولون بتساوي مستوى الإعجاز في كل آيات القرآن الكريم وسوره، وإنَّ هذا الإعجاز اللغوي والأسلوبي يتماثل مع كل أجزاء القرآن، مع اختلاف نوعي في الأسلوب والموضوعات بين القرآن المكي والقرآن المدني^(٢٢).

إلا أن هذا الإجماع حول تساوي المستوى الجمالي لأجزاء القرآن كله لا يعدم من العلماء

لكن القرآن ذاته نفى أن يكون هذا الكلام هو من الشعر، بمعنى أنه نفى هذا التشابه المفترض الذي شعر به العرب بين الشعر الجاهلي ولغة القرآن، فقال تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُوْمِنُونَ ﴾^(٢١)، ليؤكد ذلك تمييز النص القرآني من غيره من النصوص الجمالية، أو التداولية، كونه نصاً مفارقاً لكل أشكال النصوص السابقة.

من هذا المنطلق فإنَّ الباحثة واعتماداً على رؤية ياكبسون حول الوظائف اللغوية، ترى أن الخروج من الجدل الماضي ومن ثم الإجابة عن التساؤل الذي طرحناه في بداية الفقرة، والذي يتعلق بكيفية الجمع بين تماثل لغة القرآن مع اللسان العربي الفصيح أي اللغة القاعدية، وبين كونه في أعلى مراتب الفصاحة، أي أنه منحرف عن هذه اللغة القاعدية، إنَّ الخروج من هذا الإشكال يكون بالنظر إلى لغة القرآن لا على أنها نسيج واحد أو بمستوى لساني واحد، بل إنَّ تعدد السور والموضوعات والانتقال من قضية إلى أخرى تختلف عنها في الموضوع والهدف، كل ذلك اقتضى ألا تكون لغة القرآن بمستوى لساني وتشكلي واحد؛ لأنَّ الوظيفة التي تؤديها الآية أو السورة أو الجزء بأكمله تختلف عن الوظيفة التي تسيطر على مواضع أخرى من القرآن، مما تتطلب اختلافاً في البناء اللغوي، وهذا يعني أن القرآن قد جمع في لغته بين المستوى القاعدي للغة بكل مستوياتها



أو الآيات المتعلقة بالتشريعات والأحكام، كلما انخفض المستوى البياني للعدول الأسلوبي للغة القرآن الكريم، وهذا طبيعي؛ لأنَّ وظيفة الآيات اختلفت وهيمنت عليها وظيفة غير أدبية جعلت الأسلوب يختلف واللغة تتغير نحو التعبير الواضح المباشر الذي لا عدول فيه ولا خرق للقواعد اللسانية العامة للغة العربية. إنَّ هذا الذي نقرره حول تفاوت الدرجة البيانية الأسلوبية لسور القرآن وآياته ليس أمراً بدعاً، ذلك أن القرآن الكريم ذاته أثبت هذا الأمر حين قال تعالى: ﴿ مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾^(٣٥)، فهذا دليل أن الله ينزل آيات أفضل من أخرى، حسب مقتضيات الحالة وطبيعة الوظيفة التي تؤديها السورة أو الجزء، وهذا أمر لا يقدر في كتاب الله، بل على العكس يجعله متطابقاً مع أدق تعريفات البلاغة والقول البليغ الذي يقتضي تطابق الكلام مع حالة القارئ أو السامع مع بلاغته طبعاً، وهذا الأمر هو الذي تحكم في بناء آيات القرآن وسوره، مما جعلها تتفاوت في أسلوبها ومستوى لغتها، لتفاوت الوظيفة المهيمنة في موضوع معين عن موضوع آخر، وهذا ما سنفصل فيه في الجزء التطبيقي القادم.

القسم الثاني: القسم التطبيقي (التحليل الوظيفي لسور القرآن الكريم)
أولاً: التوزيع الوظيفي لسور القرآن الكريم

من يقول بغيره مثل الخطابي (٣٣٤هـ) الذي قُسم أجناس الكلام على ثلاثة أشكال متفاوتة، فمنها البليغ الرصين الجزل، ومنها الفصيح القريب السه «ومنه الجائز الطلق السهل»^(٣٣). وقد جمع القرآن حسب رأيه هذه الأساليب الثلاثة، ومزجها بطريقة جعلت أسلوبه منفرد عن باقي أشكال التعبير اللساني العربي الإبداعي وغير الإبداعي^(٣٤).

إنَّ النظرة الموضوعية والمقارنة اللسانية الخالصة للموضوع، تجعلنا نتأكد من صحة ما ذهب إليه الخطابي وأيده في رأي له الباقلاني، ذلك أن النظر إلى الموضوع من خلال نظرية ياكبسون في الوظائف اللغوية، تجعلنا ننتبين أن اختلاف أسلوب القرآن الكريم ولغته من موضوع إلى آخر، ومن سورة إلى أخرى، ومن جزء إلى آخر، يخضع للوظيفة المهيمنة على هذا الجزء أو الموضوع، وهذا ما سنفصل فيه في الجزء التطبيقي للنظرية في القرآن الكريم. على هذا الأساس نقول بتمايز لغة القرآن وأسلوبه من جزء إلى آخر، ومن ثم تفاوت درجة الجمالية الأسلوبية الفنية، على اعتبار أن الإعجاز البياني يتعلق بلغة القرآن الكريم المعدولة عن الأسلوب اللغوي الاعتيادي للكلام العربي، فكلما كان هذا العدول أكبر وأعمق كلما ارتفع جمالية وفنية الجزء أو السورة في مستواها البياني الإعجازي، وكلما قلَّ أو ضعف هذا العدول، بحسب الغرض الذي يقتضي ذلك ويحتم اللجوء للغة القاعدية كما في السور المدنية،

عليها (الوظيفة الخطابية)، إذ التوجه فيها نحو المخاطب أو المرسل إليه، لإقناعه بضمون الخطاب أو الرسالة اللغوية، وكل سور القرآن الكريم تحوي هذه الوظيفة؛ لأنها الوظيفة الرئيسة من كل القرآن كما نص القرآن على ذلك في أكثر من موضع، من مثل قوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢٦)، إلا أن هناك سوراً بأكملها أو تهيمن عليها هذه الوظيفة بشكل مطلق لعل أبرزها: البقرة، النساء، المائدة، النور، المجادلة، الجمعة، المنافقون، الطلاق، التحريم. وليس السبب في عدّ هذه السور أو غيرها ضمن هذه الوظيفة الإفهامية أنها تتوجه إلى المخاطب بمواضيعها وأحكامها، بل لأن أسلوبها في معظمه تقريرية، مباشر، تنخفض فيه درجة حضور الوظيفة الجمالية بشكل كبير، وإذا أخذنا أنموذجاً تحليلياً يمثل هذه المجموعة من السور، مثل سورة التحريم، نتأكد من صحة الاستنتاج السابق، إذ تبدأ السورة بالأسلوب الخطابى الندائى،

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾^(٢٧)، ومن ثم يتم عرض التوجيهات والموضوعات التي تناولتها السورة بالأسلوب المباشر وبلغة تقريرية واضحة لا تقبل التأويل أو القراءة المتعددة، والملاحظ أن الأسلوب الندائى قد تكرر في هذه السورة القصيرة خمس مرات،

يتكون القرآن الكريم من مائة وأربع عشرة سورة، تحتوي على ست آلاف ومائتين وست وثلاثين آية، تتنوع إلى قسمي القرآن الرئيسيين، وأعني بهما القسم المكي الذي يتكون من ست وثمانين سورة، بينما يتشكل القسم المدني من ثمان وعشرين كما أن القرآن كله يتكون من ثلاثة موضوعات رئيسة تشكل محاوره الكلية: محور عقائدي، ومحور تشريعي ومحور تاريخي قصصي، يمثل كل محور ثلث القرآن الكريم.

لكن هذه المحاور الرئيسة تهدف كلها إلى مخاطبة المقابل بكل أشكاله، مسلماً أم كافراً، لغرض إقناع كل شكل بما ينبغي الخطاب القرآني إيصاله له من قضايا وأفكار وسلوكيات ومن ثم لا يوجد في القرآن جزء يكون الهدف منه البعد الجمالي فقط، بل لا بُدَّ من دخول الغرض الخطابى المعين في المتلقي في كل أجزاء القرآن، مع اختلاف في الدرجة الخطابية في هذا الجزء أو ذاك، وتغيير في القيمة الجمالية من موضع إلى آخر.

وإذا حاولنا تطبيق نظرية الوظائف اللغوية التي صاغها ياكبسون على سور القرآن الكريم بكليتها، من غير النظر إلى بعض التفضيلات الداخلية المتنوعة والمختلفة عن السياق العام للسورة، وبالاعتماد على الوظيفة اللسانية المهيمنة على السورة، أمكننا توزيعها وظيفياً على الشكل الآتي:

أولاً: الوظيفة الإفهامية: ويمكن أن نصلح

مرتين متعلقاً بالنبي (صلى الله عليه وسلم)، ومرتين متعلقاً بالمؤمنين ومرة بالكافرين، وهذا التردد المكثف لأدوات النداء يؤكد الطابع الخطابى الندائى المهيمن على الوظيفة اللسانية المسيطرة على السورة بأكملها.

كما أن الطابع التقريرى المباشر للسورة يؤكد غياب العدول الجمالى عن آيات السورة بشكل يكاد يكون تام، فلا تواجد للصورة الفنية بكل أشكالها التشبيهية أو الاستعارية أو المجازية، أو حتى أشكال العدول التركيبى على مستوى بناء الجملة، ألا هذا لا ينفي توافر الوظيفة الجمالية ممزوجة بالوظيفة الإفهامية، كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتِمِّمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣٨)، إلا أن هذا التوافر الحاصل بين هيمنة الوظيفة الإفهامية، وتوافر الوظيفة الجمالية ممزوجة معها في سياق واحد، هو ما يعطي هذه الصورة وغيرها من السور الممثلة لهذا النوع من السور القرآنية تميزه الأسلوبى، أعني التشاكل بين البعد غير الجمالى للخطاب، والبعد الجمالى للنص بصياغته الفنية المؤثرة والتميزة لسانياً.

ثانياً: الوظيفة المرجعية أو السياقية: هي الرئيسة للغة، بما أن الغرض الأساس لأى لغة هو الحديث عن موضوع ما، وقد تناول القرآن الكريم كثيراً من الموضوعات، وبأساليب مختلفة: تقريرية، وقصصية، وحتى جمالية

فنية، فإن هيمنة الوظيفة المرجعية على نص ما تجعله يقترب من اللغة التقريرية، وتبتعد عن الجمالية لأن الحديث عن أى سياق يقتضى توضيحه وبيان أبعاده، وهذا ما يجعل اللغة التى يستعملها هذا الحديث تقترب من اللغة العلمية والقاعدية، البعيدة عن أى نزوع جمالى، إلا أن هيمنة هذه الوظيفة على سور وآيات من القرآن الكريم لم يجعلها كلها بمستوى جمالى غير عالٍ لهيمنة الوظيفة المرجعية عليها، بل إن منها من وصل إلى قمة الجمالية على الرغم من وظيفتها المرجعية، وهنا أذكر مثالين من القرآن أحدهما قوله تعالى:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مَصْبَاحٌ الْمَصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾^(٣٩)، فالسياق وعلى الرغم من تركيزه على قضية تتعلق بالذات الإلهية، كان من المفترض أن تطبع أسلوبه بالتقريرية والمباشرة في الخطاب، يتميز بتوافر الوظيفة الجمالية بكثافة عالية جعلت النص على الرغم من وظيفته المرجعية يتصف شعرية عالية الجمالية والمثال الآخر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

على لغة النص ذاتها، بوصفها تشكيلاً جمالياً إبداعياً، يخضع لاختيارات وتأليفات غرضها جمالي بالدرجة الأولى، لكن الخطاب القرآني في كل سياقاته ليس فيه تركيز رئيس، مهما كانت درجة توافر الوظيفة الشعرية في كل سياقاته^(٤١).

ويمكن أن نشير إلى أن السور التي ارتفع فيها توافر الوظيفة الشعرية بشكل كبير من مثل: (آل عمران، الأنعام، مريم، طه، الأنبياء، الفرقان، الشعراء، القصص، وجزء تبارك، وجزء عم).

إنَّ الباحث يؤكد أن توافر هذه الوظيفة في أغلب سور القرآن وسياقه، ممزوجة بالوظائف الأخرى التي جاء من أجلها القرآن، وبشكل متناسق ومترايب، جعله يتميز عن غيره من النصوص والخطابات التداولية والجمالية، ومن ثم أصبح غير القابل للمماثلة والمطابقة مع أي نص آخر.

من هنا نفهم تردد العرب القدماء والنقاد والمحدثين في توصيف لغة القرآن، بين أن تكون اللغة المحكية المتداولة بين الناس في الجاهلية، وبين لغة الشعر أو اللغة الأدبية الخاصة المتداولة في المناسبات الخاصة والندوات الأدبية أيامها، فإنَّ التوجيه الحقيقي لهذه القضية يقتضي التفريق بين مستويات النص القرآني المتنوعة بين الأساليب الجمالية والخطابية والإفهامية التقريرية، فلا يمكن الحكم على لغة القرآن بوصفها كلاً واحداً؛ لأنَّ سيطرة وظيفة ما على أي سياق أو سورة

أصلها ثابت وفروعها في السماء تُوتي أكلها كُلَّ حين بإذن ربها ويضربُ الله الأمثال للناس لعلَّهم يتذكرون ومثلُ كلمةٍ خبيثةٍ كشجرةٍ خبيثةٍ اجْتُثَّتْ من فَوْقِ الأَرْضِ ما لَهَا من قَرَارٍ يُثْبِتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابِتِ في الحَيَاةِ الدُّنْيَا وفي الآخِرَةِ وَيَضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ ما يَشَاءُ ﴿٤٠﴾، إذ على الرغم من أن الآيات تتناول قضيتي الكفر والإيمان، وثبات المؤمنين على عقيدتهم في الدنيا والآخرة، أسلوبها يتميز بالجمالية المطلقة، جعلتها تجمع بين الوظيفتين المرجعية والجمالية في المستوى ذاته.

لكن سيطرة الوظيفية المرجعية في مواضع أخرى جعل السياق يبتعد عن الجمالية ويقترّب من الوضوح التقريري كما في سور من مثل (الأنفال، التوبة، النور، الأحزاب، محمد، المجادلة، الجمعة) إذ تهيمن الوظيفية المرجعية على هذه السور مع توافر الوظائف الأخرى بالتأكيد، لاسيما الإفهامية، إلا أنَّ هذه السور تركز على قضايا تحدد أبعادها وترسم ملامحها، مثل قضايا الحرب والنفاق والحدود والمعارك وغيرها من الموضوعات، مما اقتضى في بعض الأحيان الكثيرة الابتعاد عن الأسلوب البياني، ومن ثم انخفاض مستوى توافر الوظيفة الجمالية، مع عدم غيابها دوماً مع أي وظيفة أخرى تسيطر على أي موضع من القرآن الكريم.

ثالثاً: الوظيفة الجمالية (الشعرية): وتحقق هذه الوظيفة عندما يكون التركيز



يجعلهما مختلفين عن غيرهما بشكل كلي في بعض الأحيان، ولهذا يمكن أن نعثر في لغة القرآن على هذا التنوع الوظيفي المفضي إلى التنوع اللساني في لغة القرآن الكريم وأسلوبه، ومن المنطلق ذاته يمكن أن نجيب عن التساؤل الذي أثارناه حول الجمع بين القول ببلاغة القرآن، ثم أم يعني ذلك من انحراف أسلوبه عن النمط القاعدي للغة، والقول بنزوله على لغة العرب القاعدية، فالقضية في ضوء نظرية الوظائف لجاكوبسون تبدو واضحة الدلالة؛ لأننا أثبتنا أن النص القرآني نسيج متنوع وليس نظاماً واحداً، إلا أنه تنوع متوحد مزج بين القاعدي والجمالي بصيغة لا يمكن تكرارها مرة أخرى، من خلال المزج المنظم والمرتب للوظائف اللسانية الكامنة فيه، وهذا ما جعل لغته تقترب من لغة العرب المحكية أحياناً، وتبتعد عنها أحياناً أخرى لتقترب من اللغة الأدبية الجمالية، لتنتج لنا لغة مختلفة عن الشكلين السابقين، تتسم بسماتهما إلا أنها تختلف عنهما كلياً، ولهذا تردد العرب في توصيف لغة القرآن ولم يستطيعوا إعطائه المسمى الذي يطابق مادته وموضوعاته؛ لأنه ليس لديهم مماثل له في تركيبه وشكله اللساني والموضوعاتي.

التوصيف فيها بين وصف القرآن ذاته بأنه عربي، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾^(٤٢)، وبين وصف القرآن واللسان بالعربية في الوقت ذاته مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَبِيلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ﴾^(٤٣)، ولا مجال يتسع لتتبع دلالات هذه الوظيفة وأبعادها في القرآن الكريم، لكننا يمكن أن نستنتج من التردد المتكرر لوصف القرآن ولغته بالعربية، أن الخطاب القرآني يؤكد أن النص القرآني عربي، بمعنى أنه يخضع لقواعدها اللغوية وعدولاتها الأسلوبية، ومن ضمنها التفاوت الجمالي بين موضع وآخر في النص الواحد، تبعاً لتنوع دلالاته وغاياته، ومن ثم ارتفاع مستوى كثافة اللغة الفنية في مواضع، وانخفاضها في مواضع أخرى، بحسب الوظيفة اللسانية المهيمنة على الخطاب، وهذا ما أثبتته القرآن ذاته في آية النسخ كما ذكرنا سابقاً.

الخاتمة:

يبقى القرآن كما نردد دوماً قابلاً للقراءة وإعادة القراءة، وهذا أهم ما حاول البحث إثباته وتأكيداه والمسائل التي أثارها البحث وحاول الإجابة عنها، على وفق استعمال نظرية ياكوبسون في الوظائف اللغوية، تؤكد إمكانية استنتاج دلالات متنوعة عن

رابعاً: الوظيفة الميتالسانية أو فوق اللغوية: وهي الوظيفة التي تركز على اللغة بوصفها موضوع الدراسة والتحليل، والآيات التي تتحدث عن لغة القرآن ذاتها ليس كثيرة وإنما تتمثل بعشرة مواضع في القرآن كله، يتنوع

الخطاب القرآني تختلف عن الدلالات التي وضعها القدماء وحتى المحدثون.

لقد حاول البحث الإجابة عن تساؤلات تتعلق بإعجازه، على وفق تصور لساني بحث، لا يخضع إلاً لمعايير لسانية أساسها نظرية ياكبسون بالتأكيد، فظهرت لنا نتائج أزعج أنها جديدة أو أنها قيلت باستحياء فيما مضى، تتعلق طبيعة الإعجاز القرآني ولغة القرآن، وتوافر الجمالية الفنية في سوره وآياته، ويمكن تلخيصها على الشكل الآتي:

• توافر نظرية جاكبسون إمكانيات تحليلية واسعة لمقاربة النصوص اللسانية، والقرآن الكريم بوصفه نصاً لغوياً معجزاً واحداً منها بالتأكيد، لسمو لغته ودلايتها المكثفة على خصائص العربية، وسماتها التكوينية والتركيبية.

• إنَّ مقاربة القرآن الكريم - وهو نص إلهي - على وفق نظرية لسانية، لا يمثل خروجاً عن طبيعة النص القرآني، وخصائصه اللغوية والموضوعية، ذلك أن القرآن الكريم وإن كان نصاً إلهياً إلاً أنه نص لغوي جارٍ على لغة العرب، وسُننهم في الخطاب، وهذا ما أثبتته القرآن ذاته بتأكيدده على عربية لغته، كما حللنا ذلك في الوظيفة الميتالسانية، فضلاً عن أنه موجه للبشر على وفق عقولهم ومنطقهم البشري.

• إنَّ مستوى الجمالية والفنية تتفاوت بين موضع وآخر في داخل القرآن، تبعاً لاختلاف الوظيفة اللسانية المهيمنة، وهذا الأمر أشار

إليه من قبل الخطابي والباقلاني كما أثبتنا ذلك، وهو أمر لا يقدر في جمالية القرآن وإعجازه بل يؤكد ذلك، من خلال التأكيد على اختلاف طبيعة المستوى اللساني التركيبي بين موضع وآخر، تبعاً لاختلاف الغرض الوظيفي للموضع القرآني، وهذا الأمر يتناسب مع جوهر البلاغة التي تنص على أن لكل مقام مقال، ويتناسب مع تأكيد أن القرآن على أفضلية بعض الآيات على بعض كما ذكر تعالى في سورة البقرة.

• من خلال استعمال نظرية جاكبسون، توصلت الباحثة إلى نتيجة تتعلق بلغة القرآن الكريم، التي اختلف فيها الدارسون بين كونها لغة أدبية قاعدية وفنية وظيفية، وأثبت البحث جمع الخطاب القرآني للمستويين: اللغوي والوظيفي، على وفق متطلبات الخطاب وأغراضه الوظيفية.

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يكون هذا العمل في ميزان حسناتي، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

هوامش البحث:

- ١- يُنظر: النظرية الألسنية عن رومان جاكسون: ٦٨.
- ٢- نظرية ياكبسون أو البنيوية الظاهرية: ١١٩.
- ٣- المصدر نفسه: ١١٩-١٢٠.
- ٤- يُنظر: تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحديثة: ١٥.
- ٥- قضايا الشعرية: ١٧.



- ٦- الأسلوبية منهجاً نقدياً: ١١٦-١١٧.
- ٧- مفاهيم الشعرية: ٩١.
- ٨- رومان ياكسون أو البنيوية الظاهرية: ١٢٠.
- ٩- الخصائص: ٣٣.
- ١٠- يُنظر: رومان ياكسون أو البنيوية الظاهرية: ١٢٧.
- ١١- يُنظر: قضايا الشعرية: ٣٣.
- ١٢- معجم مصطلحات النقد الحديث: ١٤١.
- ١٣- النظرية الألسنية عند رومان ياكسون: ٧٥.
- ١٤- نظرية اللغة في النقد العربي: ٦٢.
- ١٥- كتاب العبارة: ٢.
- ١٦- الإحكام في أصول الأحكام: ١/١٦.
- ١٧- يُنظر: المحصول: ١١٧-١١٩، المزهر: ١/٣٥-٣٦.
- ١٨- المثل السائر: ١/١٩-١٢٠.
- ١٩- يُنظر: الخطيئة التكفير من البنيوية إلى التشرحية: ١٥.
- ٢٠- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ١١٩.
- ٢١- الأسلوبية منهجاً نقدياً: ١٢٣.
- ٢٢- منهاج البلغاء وسراج الأدباء: ١٩٩.
- ٢٣- المصدر نفسه: ٣٤٦.
- ٢٤- المصدر نفسه: ٣٤٦.
- ٢٥- يُنظر: الخطيئة والتكفير: ١٥-١٦.
- ٢٦- الإتقان في علوم القرآن: ١٤٤-١٤٧.
- ٢٧- نظرية اللغة في النقد الأدبي: ٢٩٥.
- ٢٨- يُنظر: بنية القصيدة الجاهلية: ١٢٣-١٢٤.
- ٢٩- سورة الأنبياء: ٥.
- ٣٠- بنية القصيدة الجاهلية: ١٢٦.
- ٣١- سورة الحاقة: ٤١.
- ٣٢- علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه: ٢١٧-٢٢٥.
- ٣٣- بيان إعجاز القرآن: ٢٦.
- ٣٤- المصدر نفسه: ٢٦.
- ٣٥- سورة البقرة: ١٠٦.
- ٣٦- سورة النحل: ٤٤.
- ٣٧- سورة التحريم: ١.
- ٣٨- سورة التحريم: ٨.
- ٣٩- سورة النور: ٣٥-٣٦.
- ٤٠- سورة إبراهيم: ٢٤-٢٧.
- ٤١- المثل السائر: ٢٩.
- ٤٢- سورة الشعراء: ١٩٢-١٩٥.
- ٤٣- سورة الأحقاف: ١٢.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

- ١- الأمدي، أبو الحسين سيد الدين علي بن أبي علي، الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: د. سيد الجميلي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ١، ١٤٠٤هـ.
- ٢- الباقلاني، أبو بكر محمد، إعجاز القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر (د.ت).
- ٣- بركة، فاطمة الطبال، النظرية الألسنية عند رومان جاكسون، دراسة ونصوص، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط ١، ١٩٩٣م.
- ٤- الخطابي، وسيلمان، حمد بن محمد بن إبراهيم، بيان إعجاز القرآن، ضمن كتاب ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله أحمد، د. محمد زغلول، دار المعارف، مصر، ط ٣، ١٩٧٦م.
- ٥- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر، المحصول،



- تحقيق: د. طه جابر فياض العلواني، مؤسسة الرسالة، الكويت، ط ٣، ١٩٩٧ م.
- ٦- راضي، د. عبد الحكيم، نظرية اللغة في النقد الأدبي، مكتبة الخانجي، مصر، (د.ط)، ١٩٨٠ م.
- ٧- زرزور، د. عدنان محمد، علوم القرآن وإعجازه وتاريخ توثيقه، دار الإعلام، الأردن، ط ١، ٢٠٠٥ م.
- ٨- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، المزهري في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.
- ٩- صمود، حمادي، معجم مصطلحات النقد الحديث، حوليات الجامعة التونسية، عدد ١٥، ١٩٧٧ م.
- ١٠- عباس، فضل حسن، إتقان البرهان في علوم القرآن، دار النفائس، الأردن، ط ٢، ٢٠١٠ م.
- ١١- عزام، محمد، الأسلوبية منهجاً نقدياً، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، (د.ط)، ١٩٨٩ م.
- ١٢- عزام، محمد، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، (د.ط)، ٢٠٠٣ م.
- ١٣- عوض، د. ريتا، بنية القصيدة الجاهلية، الصورة الشعرية لدى امرئ القيس، دار الآداب، بيروت، ط ١، ١٩٩٢ م.
- ١٤- الغدامي، د. عبد الله، الخطيئة والتكفير من البنيوية إلى التشريحية، قراءة نقدية لنموذج إنساني معاصر، المركز الثقافي، جدة، ط ١، ١٩٨٥ م.
- ١٥- القرطاجني، أبو الحسن حازم، منهاج الأدباء وسراج البلغاء، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ٣، ١٩٨٦ م.
- ١٦- الكاتب، أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير، المثل السائر، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت، (د.ط)، ١٤٢٠ هـ.
- ١٧- لمجهول، للمهدوي ولابن بري والصفاقسي، أربعة كتب في علوم القرآن، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٩٩٨ م.
- ١٨- المسدي، د. عبد السلام، الأسلوبية والأسلوب نحو بديل ألسني في نقد الأدب، الدار العربية للكتاب، ليبيا وتونس، (د.ط)، ١٩٧٧ م.
- ١٩- الموصلي، أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط ٤، (د.ت).
- ٢٠- ناظم، حسن، مفاهيم الشعرية دراسة مقارنة في الأصول والمنهج والمفاهيم، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٤ م.
- ٢١- هولنشتاين، ألمر، رومان ياكبسون أو البنيوية الظاهرية، تحقيق: عبد الجليل الأزدي، تانسفيت، الدار البيضاء، ط ١، ١٩٩٩ م.
- ٢٢- ياكبسون، رومان، قضايا الشعرية، تحقيق: محمد الولي، ومبارك حنون، دار توبقال، المغرب، ط ١، ١٩٨٨ م.

**THE STYLISTICS OF THE Holy Quran AND
Jackapson Functional Linguistics**

DR. Inas Abbas Saleh al- Birmanee

Abstract

The holy Quran remains as both text and addressing in a way that could be read again and as a production of new indications different from indications that being produced previously based on means and scientific and cognitive outcomes,

By this point , the current study tries to re-read holy Quran based on the stylistic method , its characteristics are the stylistic planning of Jackapson placed to specify the linguistic functions that any text includes either be literary or non- literary.

This study tries to address this by raising questions.

a. What are linguistic functions Suratt Al-Quran includes ? Does this Surah include a distinguished function different from other functions? Is this distinguish vary from one surah to another?

b. Could we ,by answering past inquiries ,ask a vital idea about equalization of Quran Surah and Ayahs in respect to its artistic level along with its effect ?

It is the subject of the ancient about the matte since it includes doctrine sides about Allah and its effective and aesthetic degrees,

Methodology of research divides into :

-Theoretical side (theory and application)

-Application side (functional analysis of Quran Surah.

